مكانة الدين فى التعليم

للدكتور السيد محمد يوسف الهندى

بمناسبة ما كتبه أخيراً الأستاذ عباس خضر عن مكانة الدين فى التعليم ألفت نظر القراء إلى ملاحظات الكاتب الإنجليزى كنث رتشمند Kenneth Richmond فإنه يقول فى معرض الكلام عن الاتجاهات الجديدة (وهى ضد ذلك النوع من « التقدم » الذى يحاول أمثال سلامة موسى أن ينتحلوه لأنفسهم عفواً بلا كد ولا تعب) فى ميدان التعليم بانجلترا ما يلخص بأن ظروف الحرب العالمية الأخيرة — مثل إختفاء الفوارق بين الطبقات فى المخابئ والمساهمة فى التضحيات على السواء، والإقبال على الخدمات الاجتماعية، وضرورة الارتجال فى كثير من الأمور — أثارت فى الشعب شعوراً قوياً يجعل التعليم جماعياً بعد ما كان إلى ما قبل الحرب فردياً. ومعنى ذلك أن الفرد سيربى تربية تبعثه على الاهتمام بمصالح الشعب كله بعد ما كان يسود قصر ذلك الاهتمام على مصلحة ذاته، وبعبارة أخرى ستبذل من الآن محاولة للابقاء على عواطف الأفراد ومشاعرهم نحو الجماعة أو الشعب فى حالة السلم على ما كانت هى عليه إبان الحرب وأمام خطر الفناء المشترك. ولنضرب لذلك مثلا، فإن الفرق دقيق ويتعلق بالروح أكثر مما يتعلق بالشكل: من المعروف أن كليات العلوم والهندسة فى انجلترا كانت قد تحولت أيام الحرب إلى مصانع للقنابل والعتاد الحربى، كما أن المصانع كانت قد أنشأت فصولا لتدريب فئات مختلفة من الشبان الجدد فى الصناعات المختلفة، وكان المنخرطون فى هذه الصفوف طلابا ناشئين للعلم؛ وكانوا فى الوقت نفسه يقومون مقام العمال المنتجين يدفع لهم بعض الأجر، ولكن الطالب كان يشتغل لا ليكتسب لنفسه ويهيىء سبيل العيش لذاته، بل إنما كان ذلك مساهمة منه فى المجهود القومى للدفاع عن الشعب بأسره. وكان يكتنف العمل من أوله إلى آخره جو من الحقيقة والواقعية والحماس وإخلاص النية جعل التعليم أسرع وأنفذ وأنجع بكثير من القاء المحاضرات وتجريع الدروس فى المعامل التجريبية.

كان من الطبيعى إذاً أن يتجه المسئولون عن سياسة التعليم، غير المصابين بمركب النقص الذى يحدو المرء إلى محاكاة التقدم الزائف، إلى التساؤل: هل يمكن أن تستمر هذه الروح الجماعية السليمة القوية تسود معاهد التعليم بعد أن انتهت الحرب وزال الخطر؟ وكان الجواب: نعم بشرط أن يكون هناك مقصد عال ومرمى واضح يوضع موضع الانتصار على هتلر وأعوانه. وهل نتصور أن يتألف هذا المقصد السامى الدائم إلا من قيم روحية وأخلاقية إنسانية ذات منفعة عالمية يجد الفرد فى تنميتها وتشييدها ما كان يجد فى إمداد القوى المحاربة وتعزيز الدفاع ضد العدو؟ ثم هناك مسألة أخرى وهى: هل يمكن أن توجد وتقوى وتزدهر القيم الروحية والأخلاقية مجردة عن نظام دينى؟ مهما يقل القائلون فى هذا الصدد فإنه يكفينا فى هذا المقام أن المفكرين فى انجلترا رأوا أن لا مندوحة لهم عن الارتكاز على الدين (لا استغلاله كما نفعل نحن فى بعض المناسبات) ولذلك رسموا للدين مكانا محترما ممتازاً فى مشروع قانون التعليم لسنة ١٩٤٤ م. ولكن هناك بعض الناس يخيل إليهم أن القيم الإنسانية إذا اقترنت بالإسلام فهى لابد أن تتحول «طائفية» أرى أن الانصراف عن إتباع هؤلاء الناس أولى من الرد عليهم.

وهكذا مر التعليم بأربعة أدوار مختلفة؛ فإنه كان فى الأول يقتصر على نقل بعض المعلومات إلى ذهن الطالب. ثم اتسع نطاقه حتى شمل الجسم السليم مع العقل السليم؛ وبعد ذلك أشاروا بإبراز شخصية الطالب وتنمية قواه الكامنة فحسب، حتى انتهى بهم المطاف فى الوقت الحاضر إلى إدماج تلك الشخصية فى المجتمع وضرورة توجيه عواطفه وتركيز إهتمامه فى المصالح الجماعية.

وللكاتب الإنجليزى المذكور إستطرادات طريفة، منها أن الولاء للقدور السامية والقيم الأخلاقية من أقوى الضمانات للاقلال من أوقات الفراغ والقضاء على الكسل والبطالة والحد من الطرح والهزل؛ وفوق ذلك كله هو الدواء الوحيد لتجنيب الإنسانية ويلات تقدم العلوم والحضارة الآلية التى تؤدى إلى فناء المواساة وعدم المروءة. ولعل من أهم ما استطرد إليه الكاتب مصارحته القول بأن الديمقراطية الحقة لا يمكن أن توجد إلا بالاستناد إلى الدين؛ وذلك لأن المساواة بين الناس شىء لا وجود له